نظرية المجال (كيرت ليفين) المحاضرة الرابعة

لقد أثرت العلوم الطبيعية كثيرا في مسار العلوم الحديثة كعلم النفس، ويعد مفهوم المجال هو واحد من المفاهيم التي ظهرت في علم الطبيعة وكان له تأثيره في الفكر السيكولوجي الحديث، وأولى تلك التأثيرات لنظرية المجال في علم النفس ظهور الحركة المعروفة بأسم (علم النفس الجشطالتي) والتي بدأها ثلاثة من علماء النفس الألمان هم (فريتمر، كوهلر، كوفكا). والفكرة الأساسية التي تقوم عليها النظرية الجشطلتية إن الطريقة التي يتم بها إدراك موضوع ما يحددها السياق أو الصياغة الكلية التي يوجد فيها الموضوع، وليست الخصائص الثابتة لهذه المكونات الفردية هي التي تحدد الإدراك.

لم تكن نظرية المجال بالنسبة لليفين مدرسة جديدة في علم النفس لها مضمونها المحدد، بل اعتبرها مجموعة من المفهومات يستطيع المرء بها تمثيل الواقع السيكولوجي، ويجب ان تكون تلك المفاهيم من الاتساع بحيث يمكن تطبيقها على جميع أشكال السلوك. لذا فقد طبق ليفين نظرية المجال على ظواهر سيكولوجية واجتماعية شديدة التباين بما في ذلك (سلوك الطفل الرضيع، المراهقة، الضعف العقلي، مشكلات جماعات الأقليات، فروق الطابع القومي، ديناميات الجماعة ...الخ). وحاول معالجة بعض المشاكل التي تواجه الإنسان من خلال نمط من البحوث أطلق عليها اسم (بحث– الفعل) وهدفه تغيير الظروف الاجتماعية.

خلفية النظريه:

النظرية المجالية مأخوذة عن علم الفيزياء، وهذا المفهوم (المجال) بدأ مع ظهور مدرسة الجشطالت، ورغم انتمائه لمدرسة الجشطالت في بداية حياته العلمية إلا أن نظريته تختلف عن نظرية الجشطالت، حيث ليفين يركز على (الحاجات، الإرادة، الشخصية، العوامل الاجتماعية) في الوقت الذي تركز فيه الجشطالت على (الإدراك، التعلم، التكوينات الفسيولوجية في شرح الإنسان) ويعتبر توجه (ليفين) في علم النفس توجهاً اجتماعياً، بل قال صراحة أن علم النفس هو علم اجتماعي، وركز في عمله هو وأتباعه على دراسة السلوك كدالة للموقف الفيزيقي والاجتماعي.

وتؤكد (نظرية المجال) التي نادى بها (ليفين) أن السلوك هو وظيفة المجال الذي يوجد في وقت حدوث السلوك، ونتيجة لقوى دينامية محركة ويبدأ التحليل بالموقف ككل ومن الموقف الكلي تتمايز الأجزاء المكونة.

السمات الاساسية لنظرية المجال:

١- السلوك وظيفة المجال الذي يوجد في الوقت الذي يحدث فيه السلوك .
٢- يبدأ التحليل بالموقف الكلي، ومن الموقف تتمايز الاجزاء المكونه له.
٣- من الممكن تمثيل (الشخص الفعلي- العياني) و (الموقف الفعلي- العياني) رياضياً.

ويعرف المجال بأنه :(جميع الوقائع الموجوده معاً والتي تدرك على انها مترابطة يعتمد بعضها على البعض الاخر.)

مزايا (التمثيل الرياضي) كما يراها ليفين:

١- التمثيل الرياضي يقتضي صياغة دقيقة على حين يتزايد احتمال عدم الدقة والابهام في التعريفات اللفظية.
٢- يمكن استخدام التمثيل الرياضي في إبراز المعلومات الهامة، باستخدامه في عمليات رياضية مختلفة (التماس أطوال للمجهولات – كتابة المعادلات المنطقية التي تربط بين مختلف المفهومات- صياغة العلاقة الوظيفية. في حين إن الكلمات تقود إلى المزيد من الكلمات.
٣- الرياضيات التي يستخدمها ليفين ذات طبيعة غير مترية، تصف في جوهرها العلاقات والاتصالات القائمة بين المجالات المكانية دون مراعاة الحجم والشكل.

٤-بناء الشخصية Structure of personality

أولا- الشخص:

في تعريفنا "الشخص" كمفهوم بنائي يجب تمثيله ككيان منفصل عن كل ماهو موجود في العالم، يمكن ان يحدث هذا الفصل بواسطة الكلمات كما يفعل (تعريف قاموس وبستر) فالشخص هو: ((كائن انساني – فرد)). كما يمكن أن يحدث الفصل بواسطة التمثيل المكاني هذا التمثيل يكون قابلا للمعالجة الرياضية، في حين لا يمكن ذلك في التعريفات اللفظية لذا يفضل ليفين تعريف مفهوماته البنائية بواسطة العلاقات المكانية فيضفي على مفهوماته طابعاً رياضياً.

ان الفصل بين الشخص وبقية العالم يتم برسم شكل مغلق بغض النظر عن نوعية ذلك الشكل كأن يكون دائرة – مثلث– مربع– وحتى شكل غير منتظم. المهم أن يكون لذلك الشكل حدود مغلقة.

وفي ضوء الرسم أعلاه فان كل مايوجد داخل الحدود هو (الشخص)، وكل ما هو خارج الحدود هو (لا– ش). إن السمة الهامة الوحيدة في الشكل اعلاه هي انه يصور لنا منطقة محددة تماماً داخل منطقة أكبر منها. بهذا التصور الذهني نتوصل إلى ان هناك خاصيتين للشخص :

أ– خاصية التمايز أو التفاضل Differentiation (فصله عن بقية العالم برسم حدود مستمرة)
ب– خاصية علاقة الجزء بالكل Part–whole relationship وهي وصفه داخل منطقة أكبر.

(باختصار يمكن تمثيل الشخص بوصفه منفصلا عن كل أكبر، ومندمجاً في نفس الوقت داخل هذا الكل)

ثانياً– البيئة النفسية

الخطوة الثانية في تمثيلنا للواقع السيكولوجي هي أن نرسم شكلا أخر له حدود يكون أكبر من الشخص ويحيط به. ليفين لتمثيل ذلك استعمال شكلا بيضاوياً، لا يستطيع أن يشارك في أي جزء من حدود الدائرة التي تمثل الشخص

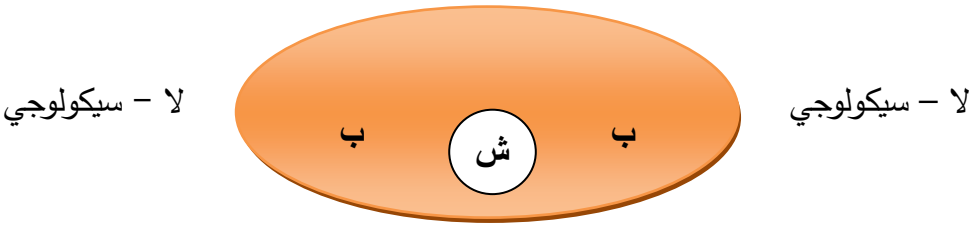

اذن تمثل المنطقة بين محيطي الشكلين البيئة النفسية ويرمز لها (ب) ، وتسمى المنطقة الكلية داخل الشكل البيضوي بحيز الحياة (ش+ب = حيز الحياة)

والفراغ الموجود خارج الشكل اليضوي يمثل الجوانب غير السيكولوجية في العالم وتسمى بالعالم الفيزيقي.

ثالثا – حيز الحياة The life space

ثالث المفاهيم البنائية في نظرية ليفين مفهوم (حيز الحياة) الذي يمثل الواقع السيكولوجي بأسره، وهو يحتوي على مجموع الوقائع الممكنة والقادرة على تحديد سلوك الفرد. من خلال حيز الحياة نستطيع أن نفهم السلوك العياني لكائن انساني ما في بيئة سيكولوجية معينة في وقت معين، فالسلوك هو وظيفة حيز الحياة:

س = و (ح)

فالسلوك هو مجموعة الوقائع السيكولوجية الموجودة في حيز الحياة في لحظة محددة.

الغلاف الغريب

الغلاف الغريب

ان الوقائع الموجودة في المنطقة خارج حدود حيز الحياة والمتاخمة له، وهي المنطقة التي يطلق عليها ليفين أسم (الغلاف الغريب Foreign hall) تستطيع أن تحدث تأثيراً فعلياً في البيئة النفسية، فالوقائع غير النفسية تغيير في الوقائع النفسية وقد أطلق ليفين اصطلاح (الايكولوجيا السيكولوجية) على دراسة الغلاف الغريب أي (الدراسة النفسية للبيئة). ولكي تحدث وقائع البيئة النفسية تغيرات في العالم المادي فثمة اتصال قائم بين الجانبين، كذلك يقال أن الحدود الفاصلة بين حيز الحياة والعالم الخارجي تتسم بالنفاذية، فالحدود تشبه الغشاء النفاذ. ويجب ان نلاحظ أن العالم الخارجي لا يستطيع الاتصال مباشرة بالشخص، كما أن (ش) لا يستطيع الاتصال مباشرة بالعالم الخارجي ، اذ لابد أن توجد الواقعة في البيئة النفسية قبل أن تؤثر في الشخص أو تتأثر به. كما ان الحدود الفاصلة بين (ش) و(ب) هي الأخرى قابلة للنفاذ. أي أن وقائع البيئة يمكن أن تؤثر في الشخص كما أن الوقائع الشخصية يمكن أن تؤثر في البيئة.

لذا نجد ان نظرية المجال تحاول التأكيد على فهم الموقف النفسي العياني الراهن بوصفه وتفسيره بدلا من أن يحاول أن يتنبأ بالكيفية التي سيكون عليها سلوك شخص ما في المستقبل.

(فرويد أكد على الماضي– يونج اكد على المستقبل– ليفين اكد على الحاضر)

البيئة المتفاضلة :

ان البيئة المتجانسة أو غير المتفاضلة هي تلك التي يتساوى فيها تأثير جميع الوقائع على الشخص، ويكون للشخص في مثل هذه البيئة حرية كاملة في الحركة طالما ليست هناك حواجز تعوقه.

الاتصال بين المناطق :

الشخص المتفاضل تحيط به بيئة متفاضلة تمثل حيز الحياة، ويتم هذا التفاضل عن طريق رسم خطوط تعمل كحدود بين المناطق، والقابلية للنفاذ هي احدى خصائص الحدود وبهذا يتكون المجال الحيوي من شبكة من النظم التي يتبادل فيما بينهاا الاتصال.

س/ مالذي نعنيه عندما نقول أن المناطق متصلة؟

١– افترض ليفين ان كلا من المناطق الجزئية للبيئة تحتوي على واقعة واحدة لا تظهر في أكثر من منطقة في ذات الوقت.

- الواقعة Fact لدى ليفين لا تشير إلى الأشياء التي يمكن ملاحظتها مباشرة فقط، بل تشير ايضاً إلى الأشياء التي لا يمكن ملاحظتها مباشرة، وانما يمكن استنتاجها من شيء اخر يمكن ملاحظته، فالواقعة (اي شيء سواء كان محسوساً أو مستنتجاً)
- الحادثة Event هو نتاج التفاعل بين عدد من الوقائع ، فالكرسي والشخص هما واقعتان، لكن الشخص الجالس على الكرسي هو حدث.

٢– لتفسير عملية الاتصال بين منطقتين نلاحظ ان هناك اتصال بين واقعة في منطقة ما وواقعة في المنطقة الثانية. فمثلا يقال أن شخصا متصل بالبيئة لان واقعة ما في البيئة تستطيع ان تغير في الشخص والعكس صحيح.

وعادة تتأثر عملية الاتصال بين المناطق وفق عدد من الابعاد هي :

أولا– بعد (القرب– البعد): هذا النمط من التمثيل يضع المناطق قريبة من البعض الاخر عندما يكون تأثير الواحدة على الأخرى كبيراً، ونضعها بعيدة كل عن الأخرى عندما يكون التأثير ضعيفاً.

ثانياً– بعد (الضعف– الصلابة): يمثل عرض الخط حد المقاومة أو قابليته للنفاذ فالخط الرفيع يمثل حداً ضعيفاً، والخط السميك جداً يمثل حداً غيرقابل للنفاذ.

ثالثاً– بعد (المرونة – الجمود): ياخذ هذا البعد باعتباره طبيعة الوسط الذي تتكون فيه المنطقة، فوسط المنطقة هو خاصيته الارضية أو السطحية. فالوسط المرن هو الذي يستجيب سريعاً لاي تأثير يكون له وقع عليه، فهو مرن أما الوسط الجامد فيقاوم التغيير. ووجود منطقتين تتصل بينهما منطقة ثالثة يتميز سطحها كيفياً بالجمود البالغ لن يمكنها التواصل بينها.

ديناميات الشخصية:

يحدد (ليفين) بعض المفاهيم الرئيسية في دينامية الشخصية، نذكر منها :

١– الطاقة:

يتفق ليفين مع معظم اصحاب نظريات الشخصية حول ان الشخص نظام معقد من الطاقة، والطاقة التي تقوم بالأعمال النفسية هي (الطاقة النفسية)، وهي غير الطاقات الأخرى، فعندما تطرأ على الشخص حالة انعدام التوازن، فإن الطاقة النفسية تنطلق عندما يحاول الجهاز النفسي (الشخص) العودة إلى التوازن بعد ان يوضع في حالة من عدم التوازن الذي ينشأ عنه زيادة التوتر في جزء من أجزاء الشخصية بالقياس إلى بقية الاجزاء، سواء كان ذلك نتيجة تنبيه خارجي أم تغيير داخلي، وعندما يتساوى التوتر داخل الجهاز كله يتوقف توليد الطاقة ويتجه نحو الراحة.

٢– التوتر:

يشير ليفين إلى الخصائص الدينامية لمنطقة أو خلية فانه يسمي المنطقة نظاماً. وحالة التوتر في نظام معين يميل إلى معادلة أو مساواة نفسها بكمية التوتر في النظم المحيطة، وتسمى الوسيلة النفسية التي تعادل التوتر في الانظمة بأسم " عملية" وقد تكون (تفكيراً – تذكراً ، وجداناً، ادراك، عمل ..الخ) وهذه الخاصية تنطبق فقط على النظام ككل، وليس على جميع

النظم الجزئية لان حالة التوازن لا تعني أن النظام يخلو من التوتر، بل يعني أن التوتر داخل النظام ككل متعادل.

٣- الحاجة:

والحاجة كما يرى (ليفن) شعور المرء بأنه ينقصه شيء أو يلزمه شيء، ويؤكد (ليفين) أن حاجات الشخص تحددها إلى حد كبير العوامل الاجتماعية، فالحاجة تطلق القوة وتزيد التوتر وتعطي القيمة، إنها المفهوم الرئيسي أو المركزي الذي تنظم حوله المفاهيم الأخرى . ويرى ليفين ان كل حاجة واقعة عيانية ملموسة ، يجب أن توصف بكل خصائصها وتفصيلاتها ليتسنى لنا فهم الواقع النفسي الحقيقي. ويميز ليفين بين ثلاث حالات تتعلق بالحاجات
(حالة الجوع- الامتلاء- الامتلاء المفرط) يقابل هذه الحالات (تكافؤ ايجابي- محايد- تكافؤ سلبي).

٤- القيمة:

ويقصد بها قيمة منطقة في المجال النفسي عند الشخص، وهناك نوعان من القيمة، قيمة إيجابية وقيمة سلبية والمنطقة التي يضفي عليها الشخص قيمة إيجابية هي التي تحتوي على موضوع يخفض التوتر مثل المنطقة التي تحتوي على طعام بالنسبة للشخص الجائع، أما المنطقة التي يضفي عليها الشخص قيمة سلبية فهي التي تحتوي على موضوع يزيد التوتر ويهدد بالأذى مثل المنطقة التي تحتوي على حيوان مخيف بالنسبة للشخص .

٥. التحرك:

ويتحرك الشخص خلال مجاله النفسي مدفوعاً بحاجة تطلق الطاقة وتستثير التوتر وتضفي قيمة إيجابية على المنطقة التي فيها يشبع هذه الحاجة فيتحرك الشخص نحو منطقة إشباع الحاجة، فقد تكون الحدود بين المناطق سهلة فيتحقق الإشباع ويزول التوتر، وقد تكون الحدود صعبة فيتحول دون الإشباع فيحاول الشخص اتخاذ ممرات جانبية للحركة نحو الهدف وهو إشباع الحاجة .

٦- التكافـؤ:

ويقصد به تكافؤ منطقة في المجال النفسي عند الشخص وهو خاصية تصورية ذهنية لمنطقة ما في البيئة النفسية للفرد، وهناك نوعان من التكافؤ، تكافؤ موجب وتكافؤ سالب، والمنطقة ذات التكافؤ الموجب هي تلك التي تحتوي على موضوع يؤدي إلى خفض التوتر إذا ما دخل الفرد هذه المنطقة، فالمنطقة التي تحوي طعاماً ما يكون لها تكافؤ موجب بالنسبة إلى الشخص الجائع وأيضاً إذا كانت إحدى المناطق جذابة فيكون لها تكافؤ إيجابي، وإذا كانت بغيضة مثيرة للاشمئزاز فعند ذلك يكون لها تكافؤ سلبي .

٧- الصـراع:

ولقد حدد ليفين ثلاثة أنواع من الصراعات هي:

١- صراع الإقدام:

وفيه يكون الفرد في موقف وسط بين هدفين موجبين متساويين القوة تقريباً وينشأ الصراع حتى يختار الفرد بين الموقفين اللذين لكل منهما جاذبية موجبة فكلاهما يوجه الفرد في نفس الوقت من الاقتراب من هدف معين وهذا الصراع لا يستمر وسرعان ما ينتهي عندما ينتهي الفرد من اختيار هدفه .

وصراع الإقدام الإقدام مثل شاب يريد أن يتزوج وهناك هدفان يتجاذبانه فتاة، شابة جميلة يحبها ولكنها فقيرة، والهدف الآخر امرأة غنية لا يحبها فيضل في صراع كلما يقترب من الهدف الأول يشعر بالضيق بسبب بعده عن الهدف الثاني والعكس، ويمكن ترجيح أحد الهدفين، وبالتالي إنهاء الصراع فنقول له الفتاة الشابة أفضل وتزوجوا فقراء يغنيكم الله، حتى يُغلب أحد الهدفين .

٢ - صراع إحجام إحجام:

وفيه يقف الفرد بين هدفين سالبين متساوي القوى تقريباً، وصراع الإحجام الإحجام فهو يحصل عندما تكون النتائج المتوقعة لأي من عملين يجب الاختيار بينهما غير مرغوبة مثل: حفل إيذاء مشاعر صديق، أو قبول دعوة غير مستحبة. ويتميز هذا النموذج الأخير من الصراع بتأرجح بين البديلين أو بمحاولة للهرب من الموقف (مغادرة المجال) .

٣- صراع الإقدام والإحجام:

ويتصف صراع الإقدام – الإحجام بوجود هدف مرغوب ومرهوب في الوقت نفسه (كأن يكون الشخص راغباً في المال ولكنه يرهب العمل الذي يوصل إلى المال) ومثال على صراع إقدام – إحجام منح شخص فرصة العمل في الخارج ووضعه المادي حرج ومضطر للسفر ولكنه لا يريد أن يترك أولاده الذي لا يستطيع أخذهم معه، فيضل في صراع بين السفر والمال وبين العيش بين أولاده وأن يخسر المال.

نـمو الشخصية في نـظرية المجال:

لا يضع (ليفين) مراحل عمرية مثل (فرويد)، وإنما وضع تغيرات تطرأ على الشخصية، فيرى أن الشخصية تتجه من السهولة إلى التعقيد، فالإنسان في البداية يكون الشخص بسيطاً ومع تقدم العمر يتعقد أكثر، فالطفل الصغير يتصف سلوكه بالبساطة أكثر من الشخص الكبير، كما يرى أن الحدود تزداد قوة بين الشخص ومجاله كلما تقدم به العمر فتجده يتصلب أكثر وتقل مرونته كما يتجه الشخص من الخيالية إلى الواقعية .ومع النمو يتزايد عدد الحدود الفاصلة بين المناطق.